أربعون حرامي. فالجند يتضاءلون أمام الحجر المقدس (سورة الحجر، والسحب تمطر حجارة). وجاء هذا التقديس لحالة الحجر، عند نفّاع، انعكاساً لحالة القداسة التي يتمتّع بها كرم الزيتون المقدّس عند الفلسطينيين، منذ ان كان اجدادهم الكنعانيون، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يستخدمون زيته في الطقوس الدينية ، ويمسحون به شعر الرأس في المناسبات (ومن هنا جاءت كلمة المسيح)، وظلّت النظرة القدسية مرتبطة بشجرة الزيتون حتى الآن.

ولعل نفّاع ارتاح الى الاسلوب السردي الايحائي، الذي اعتمد على احداث حالة التزاوج بين الماضي والحاضر والمستقبل، في بناء نصّه القصصي، الذي أخذت فيه الاشياء، والامكنة، والدلالات، أبعادها الحسّية والنفسية، تصوغ ملحمتها في الواقع على نحو يجاري الواقع المعاش نفسه في الانتفاضة. فهو ابتعد من استخدام الشخصيات المؤطّرة الجاهزة في الواقع؛ بل انه أخذها ككل متكامل (نساء ورجال وكهول وشبان وأطفال وفتيات) دون الدخول في رسم تفاصيلها، ليترك للاحداث وللسرد القصصي مهمة رسم الملامح النفسية والحسّية لهذه الشخصيات. من هنا أخذ نصّه القصصي بعداً ابداعياً غنياً بالتفسيرات، بعيداً من مباشرة السرد، الامر الذي جعل من هذا النص القصصي حالة ابداعية أكثر منه تسجيلاً، أو تعبيراً عن حدث آني؛ فأكثر من اسقاطات الطبيعة التي تتواءم مع معاناة الذات، التي تنطق بها الافعال اليومية.

«ليلة الزفاف»

اعتمدت عايدة نصرالله، في كتابة نصّها القصصي، على الاختزال الكبير، الامر الذي وسم القصة عندها بقصة القصيدة، عبر لغة مقتضبة، محدّدة، في اطار الشخصيات التي لا تتحدث كثيراً، وكأننا تجاه كاميرا حسّاسة جداً صوّرت لنا الحدث (موضوع القصة) في مجموعة من الصور المتلاحقة، والتي ظهر من خلالها الطقس النفسي للشخصيات، ومعاناتها، طموحاتها وآلامها وآمالها، في سياق مجتمع الانتفاضة الذي أطّر له خصوصية كبيرة غيّرت كثيراً في المفاهيم التي كانت سائدة قبلاً.

و«ليلة الزفاف»[٥٥] هي واحدة من قصصها القصيرة، عالجت موضوعاً اجتماعياً (الزواج) في ظل الاوضاع التي يعيشها شبان وفتيات الانتفاضة، فحدث ان استشهد أحدهم في ليلة زفافه، أو اعتقل، وما الى ذلك من عسف الاحتلال الذي لم يترك بيتاً الّا وترك آثاره في وجوه ساكنيه.

وفي «ليلة الزفاف» سارت الحياة بشكلها الاعتيادي، على الرغم من منع التجوّل المفروض على المنطقة. الّا ان الزغرودة لم تستطع ان تظل حبيسة، فانطلقت بخفوت، ليس خوفاً من كسر قرار منع التجوّل، وانما مجاراة لحقيقة التقاليد الاجتماعية المعمول بها في مجتمعنا الفلسطيني: «لا عرس ما دام دم الشهداء طريّاً». كانت العروس متّشحة بالبياض، والانتظار لفّ بيت العريس الذي لم يأت: «لا بأس، فهو يحتاج الى أكثر من استحمام». لكن خبر اعتقال محمود كان أسرع من قدومه، والانتظار ظل انتظاراً الى ان جاء أهل العروس بها الى بيت عريسها.

قصة «ليلة الزفاف» لم تتعدّ الثلاثة عشر سطراً؛ لكن الكاتبة عايدة نصرالله استطاعت، من خلال هذه السطور القليلة، ان تنسج عالماً حيّاً تحرّك ضمنه أناس يحسّون، ويحبّون، ويبكون، ويتألمون، ويفرحون وسط خراب الطقس الاجتماعي، جرّاء الاحتلال وعسفه. وهي قصة تعاملت مع احدى نتائج الفعل الانتفاضي، وتأثيره في سيرورة الحياة اليومية بكل تفاصيلها. فدم الشهداء ما زال طريّاً، والزغرودة لا هي حبيسة الحناجر ولا هي منطلقة ترنّ في المدى الرحب. وحالة الانتظار امتدت، أكثر فأكثر، الّا ان حالة الفرح (الزواج) اكتملت بوصول العروس الى بيت زوجها. قرار منع التجول